

الفصل الخامس



إغراق الحجاج في سياسة القمع

إغراق الحجاج في سياسة القمع والقتل

الحجاج والأسرى

أما إن الحجاج قد أغرق في التقتيل والقمع فهذا ما لا ريب فيه ولا شك، وأما أن عبد الملك بن مروان قد أطلق يده في ذلك، فهذا ما يزال مدارا لكثير من البحث والتأويل.

لقد كان الحجاج يكره العراقيين، ولا يثق بأحد منهم، وكان يذكر فيما يذكره من أمورهم كيف أنهم لم يتركوا له فرصة للاستمتاع بأمجاد الولاية التي غمرت المشرق من أدناه إلى أقصاه، فما يكاد ينتهي من ثورة حتى يعلق في ثورة، وما يكاد يغمد سيفه من حرب، حتى يعود إلى سله لحرب ثانية، وقد ظهرت نغمته هذه على العراقيين وشدته على المعارضين في ثورة ابن الأشعث ظهورا تاما، وقد ذكرنا في فصل سابق كيف أسلم الحجاج للقتل أحد عشر ألفا من العراقيين يوم الزاوية بعد أن أمنهم، ولعل سبب ذلك، أنه يخشى ثورتهم عليه مرة ثانية، ولكن هذا لا يدفع عن الحجاج ما لحق به من نكث الوعد وخيانة العهد...

ومن أعمال الحجاج بعد معركة (دير الجماجم) ما لا يتفق في قليل ولا كثير مع أسرى الحروب، ومنكوبي الزحوف والمعارك، فقد جلس الحجاج بعد المعركة في الكوفة يبايع الناس، وكان لا يبايع أحدا إلا قال له:
- أشهد إنك كفرت.

فإن قال نعم، بايعه وإلا قتله، فأتاه رجل من ضغم كان معتزلا للناس جميعا فسأله عن حاله، فأخبره باعتزاله، فقال له:
- أنت متربص، أتشهد أنك كافر.

فقال له: بئس الرجل أنا، أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر.
فقال الحجاج: إذا أفتلك...

قال: وإن قتلنتني.

فقتله. ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه.

وأتى بأخر من بعده، فقال له الحجاج:

- أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر.
فقال له الرجل: أتخادعني عن نفسي، وأنا أكفر أهل الأرض وأكثر من
فرعون ... فضحك منه وخلي سبيله..
وجيء إلى الحجاج بأحد الفرس الذين أيدوا ابن الأشعث وحاربوا معه،
وكان كثير الغنى وافر الثروة، فقال له الحجاج:
-أباعثمان، ما أخرجك مع هؤلاء، فوالله ما لحملك من لحومهم ولا دمك من دمائهم.
فقال: فتنة عمت الناس. قال: أكتب لي أموالك..
فقال: وأنا أمن على دمي.
قال: والله لتؤدينها ثم لأقتلك.
قال: والله لا يجمع بين دمي ومالي.
وسيق الشعبي فقيه أهل العراق إلى الحجاج وكان مع ابن الأشعث فقال له:
- أيها الأمير أن الناس قد أمروني اعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم
الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليكم وحرصنا وجهدنا، فما
كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا، فإن
سطوت فبذونبنا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا.
فقال الحجاج: أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من
دمائنا، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي..
ويروى أن الحجاج جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
فقام رجل منهم فقال:
- «أصلح الله الأمير إن لي عليك حقا».
قال: وما حقا؟
قال: سبك عبد الرحمن يوما فرددت عليه.
قال: «من يعلم ذلك»؟
قال: أنشد الله رجلا سمع ذلك إلا شهد به.
فقام رجل من الأسرى فقال: «قد كان ذلك أيها الأمير».

قال: «خلوا عنه» ثم قال للشاهد:

- «فما منعك أن تنكر كما أنكروا؟»

قال: لقديم بغضي إياك! قال: ويخلي عنه لصدقه.

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: والله إني لأبغضكم.

فقال له الخارجي «ادخل الله أشدنا بغضا لصاحبه الجنة».

وأتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعلت تنظر غليه وكان يزيد بن أبي

مسلم يرى رأي الخوارج ويكتم ذلك. فأقبل على المرأة فقال:

- انظري إلى الأمير.

فقالت: لا أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

فكلمها الحجاج وهي كالمسماوية، فقال لها يزيد:

- اسمعي ويلك من الأمير.

فقالت: بل الويل لك أيها الكافر الردي.

والردي عند الخوارج الذي يرى رأيهم ويظهر خلافه رغبة في الدنيا.

بين عبد الملك والحجاج

قال علي بن عبد الله: سائرت يوما عبد الملك، فما حاورنا ألا يسيرا حتى

لقيه الحجاج قادما عليه، فلما رآه ترجل ومشى بين يديه. فخب عبد الملك

فأسرع الحجاج، فزاد عبد الملك فهورل الحجاج. فقلت لعبد الملك: أبك موجدة

على هذا! فقال: لا، ولكنه رفع من نفسه فأحببت أغض منه.

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عذرو العتكي. فلما أثنت الوفود

على الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر، قال زياد بن عمرو:

- يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش،

وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم.

فلم يكن أحد بعد أخف على قلب الحجاج منه.

ويروى عن ابن ميره أنه قال:

- أنا لتتغدى معه يوما - مع الحجاج - إذا جاء رجل من سليم برجل يقوده فقال:

- أصلح الله الأمير، أن هذا الرجل عاص.

فقال له الرجل: أنشدك الله أيها الأمير في دمي، فوالله ما قبضت ديوانا

قط، ولا شهدت عسكريا، وإني لحائك.

فقال: أضربوا عنقه.

فلما أحس بالسيف سجد، فلحقه السيف وهو ساجد، فأمسكنا عن الطعام.

فأقبل علينا الحجاج فقال:

- ما لي أراكم صفرت أيديكم وأصفرت وجوهكم وحد نظركم من قتل رجل

واحد، أن العاصي، يجمع خللا: يخل بمركزكم ويعصي أميره، ويغر المسلمين وهو أجير

لهم، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل، والوالي مخير فيه، إن شاء قتل، وإن شاء عفا.

بناء واسط

ولقد اشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة ابن الأشعث، وأخذ يخشى

غوائلهم عليه، بعد أن قتل كبارهم، ومزق أوساطهم، وأدمى قلوبهم، فرأى أن

يعمد إلى بناء مدينة خاصة له، يقيم فيها مع جند الشام، خصوصا بعد أن

أخذت تكثر الحوادث بين بعض الجنود الشامية وبعض العراقيين.

ويقول ياقوت أن الحجاج فكر في بناء مدينة واسط بين سنة ٨٣ وسنة ٨٦

للهجرة، وأنه بعث بعض الأطباء يفحصون له أفضل مكان في العراق لبناء مدينته

الجديدة، فاخاروا له واسط لطيب مائها واعتدال إقليمها.

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن اختيار واسط كان لأغراض عسكرية إدارية،

وبوقوعها بين البصرة والكوفة في مكان متوسط بينهما، بحيث تسيطر على العراق

كل السيطرة وتقوم في الجهة الجنوبية من نهر دجلة.

وقد أسرف الحجاج في البذخ على بناء مدينته هذه، فصرف على القصر

والمسجد والجدران الخارجية ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مليوناً من الدراهم.

ويذكر لنا (ياقوت) أن كاتب الحجاج انتقد عليه إسرافه وأشار إلى أن عبد

الملك بن مروان قد ينكر عليه إسرافه هذا، فأشار عليه الحجاج أن يذكر في

قيوده مبلغ تسعة ملايين درهم لبناء المدينة، و٤٣ مليوناً لمصارفات الحروب.

ولم يسمح الحجاج لغير السوريين من جنده وبعض الأجانب من غير العرب
من سكان بخارى وما راء النهر وغيرهم من أسرى الحروب بالسكنى في واسط..
ولما انتهى الحجاج من بنائها، نقل مركز الإمارة إليها، وظلت واسط بعد
الحجاج مركزا لعامل الخليفة في العراق.

سياسة عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي في العراق

عبد الملك والحجاج

كيف كان موقف عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من سياسة عامله في العراق..؟؟
أما أن عبد الملك كان أكثر ميلا إلى سياسة اللين والمسالمة فهذا مما لا شك فيه،
ولكنه كما يظهر لنا كان يترك الأمر لعامله حين يستعصي عليه إقرار الشرط الأول،
من سياسته، فقد عرض على أهل العراق عزل الحجاج كما قدمنا، فأبوا ذلك عليه،
فنفذ عندئذ يده من أمرهم، وترك للحجاج مهمة محاربتهم وأخذهم بالشدّة،
ولكنه كان يعود أحيانا إلى نفسه، لما يراه من انحراف الحجاج في سياسة القمع
والإرهاب، فينكر ذلك عليه، ويأسف لما وقع، ويود لو يكون بالإمكان إصلاح الحال،
وإن كان في الوقت نفسه يعلم علم اليقين أن العراق بحاجة إلى شيء من الشدّة
والحزم بعد الثورات الكثيرة التي وقعت فيه ليخلد الناس إلى السكينة والسلام..
ولعل هذه الناحية تفسر لنا الأسباب التي من أجلها كان يمكن للحجاج
في الحكم، ولا يعرض لشؤونه الإدارية ولأعماله الشديدة في كثير ولا قليل ثقة منه
أن أهل العراق قد أخرجوا الحجاج فأخرجوه، ولو كان غيره، لما وفق إلى توطيد
الأمان والسلام في هذا القسم العظيم الخطير من الإمبراطورية العربية الواسعة.
ويقول الجاحظ: كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما
وعابدها قبل أن يستخلف، ورعا وزهدا، فجلس يوما في خاصته، وقبض على لحيته
فشمها مليا ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة أطالها ثم نظر في وجه القوم وقال:
«ما أقول يوم المسألة عن أمر الحجاج وقد أدحض المحتج على العليم بما
طوته الحجب، أما أن تمليكي له قرن بي لوعة يلبها التذكار كيف وقد علمت فتعاميت،
وسمعت فتصامت، وحمله الكرام الكاتبون، والله لكأني آلف هذا الطعن على نفسي،
بعد أن نعت الأيام بتصرفها نفسا حلق لها الوعيد، بتصرم الزوال، وما أبقت الشبهة
للباقي متعلقا، وما هو إلا الغل الكامن، اللهم أنت لي أوسع غير منتصر ولا معتذر.»

قلت هذا الكلام يختبر به ما في نفوس القوم الذين ظهر منهم إمارات الغيظ من الحجاج على ثقة عبد الملك به واختياره على غيره، وطرح كل ما يقال فيه علما منه بأن لا يقوم أحد بما قام به الحجاج ثم قال:

- يا كاتب هات الدواة والقرطاس... فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه:

وسألني عبد الملك للحجاج قوله: «من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد فقد أصبحت بأمرك برما يقعدني الإشفاق وقيميني الرجاء، عجزت في دار السعادة وتوسط الملك وحين المهمل واجتماع الفكر التمس العذر في أمرك، فأنا لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون إلى الزلة من نفسي، والتوقع لما طويت عليه الصحف أعجز، وقد كنت أشركتك فيما طوقني الله حملة والأث بحقوي من أمانة الله في هذا الخلق المرعي فدلّت منه على الحزم والجد في إمارة بدعة وإنعاش سنة، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها، حتى صرت حجة العائب، وغدر اللاعن والشاهد والقائم، فلعن الله أبا عقيل وما نجل، فالأم والد، وأخبث نسل، فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب، لقد ألبستكم ملبسكم، وأقعدتكم على رواي خططكم، وأحلتكم على قدر منعتكم، فكنتم بين حافر وناقل وماتح في الفلوات القفرة، ما تقدم بكم الإسلام ولقد تأخرتم، وما الطائف منا ببعيد يجهل أهله، ثم قمت بنفسك وطمحت بهمتك وسرك انتضاء سيفك، فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح بن زنباح وشرطته وأنت على معاونته يومئذ محسود، فهفا أمير المؤمنين والله يصلح بالتوبة والغفران زلته، وكان بك وكان ما لو لم يكن لكان خيرا مما كان، كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين فقرعت صفاتنا وهتكت حجبنا، وبسطت يدك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة، في أوعية ثقيف، فاستغفر الله لذنوب ما له عذر، فلئن استقال أمير المؤمنين فيك الرأي، فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم إذا اتئمنه على الصدقات وكان عبده فهرب بها عنه وما هو إلا اختبار للثقة، والمطلب لمواضع الكفائية، فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له، فكأن هذا ألبس

أمير المؤمنين وأظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة إن شاء الله إذا استحكم
لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام.»
ودعا عبد الملك مولى له يقال له (نباتة) له لسان وفضل رأي، فنأوله
الكتاب ثم قال:

- يا نباتة العجل ثم العجل حتى تأتي العراق فضع هذا الكتاب في يد
الحجاج وترقب ما يكون منه، فإن جبن عند قراءته واستيعاب ما فيه، فأقلعه
من عمله وانقلع معه حتى تأتي به، وهدى الناس حتى يأتيهم أمري، بما تصفني
به في حين انقلاصك من حبي لهم السلامة، وأن هش للجواب ولم تأخذ الحيرة
فخذ منه ما يجيب به، وأقرره على عمله، ثم أعجل علي بجوابه.

سفر نباتة

قال نباتة: فخرجت قاصدا إلى العراق فضممتني الصحاري والفيافي واحتواني القر
وأخذ مني السفر، حتى وصلت فلما وردته، أدخلت عليه وعلي شحوب مضنى،
وقد توسط خدمه من نواحيه، وتدثر بمطرف خز أدكن، ولاث به الناس من بين
قائم وقاعد، فلما نظر إلي وكان لي عارفا، قعد ثم تبسم تبسم الرجل، ثم قال:
- أهلا بك يا نباتة أهلا بمولى أمير المؤمنين، لقد أثر فيك سفرك، وأعرف
أمير المؤمنين بك ضينا فليت شعري ما دهمك أو دهمني عنده؟

فسلمت وقعدت فسأل:

- ما حال أمير المؤمنين وخوله.

فلما هدأ أخرجت له الكتاب فنأولته إياه فأخذني مسرعا ويده ترعد
ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس معنا ثالث، وصار كل
من يطيف من خدمه يلقيه خاليا لا يسمعون منا إلا الصوت فلا يقربون، ففك
الكتاب فقراه، وجعل يتشاءب ويردد تتأؤبه ويسيل العرق على جبينه وصدغيه
على شدة البرد من تحت قلنسوته، وعلى رأسه عمامة خز خضراء، وجعل
يشخص إلي ببصره ساعة كاملتهم، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر
كاملتهم إلا أنه واجم ثم يعاود الكتاب وإني لأقول ما أراه يثبت حروفه من

شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش، ورجع إليه ذهنه فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلاً:

وإذا المنية انشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

«قبح والله منا الحسن يا نبأته، وتوا كلتنا عند أمير المؤمنين الألسن، وما هذا إلا سانح فكرة تمقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي أمير المؤمنين فينا يا غلام»، فتبادر الغلمان الصيحة، فملى علينا منهم المجلس، حتى دفأني منهم الأنفاس، فقال: الدواة والقرطاس، فأق بدواة وقرطاس، فكتب بيده وما رفع القلم إلا مستمداً حتى سطر مثل خد الفرس، فلما فرغ قال لي يا نبأته: هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا، قلت: لا، قال: إذا حسبك منا مثلهم ثم ناولني الجواب وأمر لي بجائزة فأجزل وجرى لي كسا ودعا لي بطعام فأكلت، ثم قال: نكلك إلى ما أمرت به من عجلة أو توان، وإني لأحب مقارنتك والأنس برؤيتك، فقلت: كان معي قفل مفتاحه معك، ومفتاح قفلك عندي، فأجدت لك الوافية بالأميرين، فاقفلت المكروه وفتحت العافية، وما ساءني ذلك وما أحب أن أزيدك بيانا.

ثم نهضت وقام مودعا لي فالتزمني وقال: بأي أنت وأمي، رب لطفة مسموعة، ومحتقر نافع فكن كما أظن، فخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردت على أمير المؤمنين، فوجدته منصرفاً من صلاة العصر فلما رأني قال: «ما اجتواك المضجع يا نبأته»، فقتل: «من خاف من وجه الصباح أدلج»، فسلمت وانبتذت عنه فتركني حتى سكن جاشي، ثم دفعت إليه الكتاب فقرأه مبتسماً فلما مضى فيه ضحك، حتى بدت لسه سن سوداء ثم استقصاه فانصرف إلي فقال: «كيف رأيت إشفاقه». فقصصت عليه ما رأيت منه، فقال: «صلوات الله على الصادق الأمين إن من البيان لسحرا».

ثم كذف الكتاب إلي فقال اقرأ فقرأته فإذا فيه:

كتاب الحجاج

«بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل بكفالة الله الواجب لذوي أمره من عبد اكتنفته الذلة ومد به الصغار إلى وخيم المرتع ووبيل

المكرع، من جائل قادح ومعتز فادح، والسلام عليكم ورحمة الله التي اتسعت فوسعت وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً، فيأني أحمد الله إليك راجياً لعطفك بطعفه، الذي لا إله إلا هو، أما بعد كان الله لك بالدعة في دار الزوال، والأمن في دار الزلزال، فإنه من عنيت به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصاً فما هو إلا سعيد يؤثر أو شقي يؤثر، وقد حجبني عن نواظرك السعد لسان مرصد وناث حقد، انتهبه به الشيطان حين الفكرة، فافتتح به أبواب الوسواس بما تحويه الصدور فواغوثاه باستعادة أمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه، واعتصاما بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم الإيمان وصادق السنة، فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقا نبا عنه كيده، وكثر عليه تحسره، بلية قرع بها فكر أمير المؤمنين ملبسا وكادحا مؤثرا، ليفل عن غربه الذي نصبني، ويصيب ثارا لم يزل به موتورا، وأذكره قديما ما مت به الأوائل حتى لحقت بمثله منهم، وبما كنت أبلوه من خسة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلت ذلك بالتشريط لروح ابن زنباع، وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي، بأن الذي عبر به القوم مصانعهم من أشد ما كان يزاوله أهل القدمة الذين اجتبى الله منهم وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان وارتفعوا بما يكون، وما جهل أمير المؤمنين والبيان موقعه غير محتج ولا معتد، إن متابعة روح بن زنباع طريق إلى الوسيلة لمن أراد من فوقه، وأن روحا لم يلبسني العزم الذي به رفعتني أمير المؤمنين عن خوله، وقد ألصقتني بروح بن زنباع همة لم تنزل نواظرها ترمي بي البعيد وتطالع الأعلام، وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيبا اتقسمه الإشفاق من سخطه والمواظبة على موافقته، فما بقي لنا بعد الإصابة أمر تجول به النفس وتطرف النواظر، ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير المتثبط لمن يتلوه، المتطاول لمن يقدمه، غير منبت موجف، ولا متناقل مجحف، ففت الطالب ولحقت الهارب، حتى ثارت السنة وبادت البدعة، وخسأ الشيطان وحملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة المثلى، وأمير المؤمنين ولي المظلوم ومعقل

الخائف وستظهر له المحنة نبأ أمري ولكل نبأ مستقر، وأن أمير المؤمنين لرباع أربعة أحدهم ابنة شبيب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ رمت بالظن غرض اليقين تفرسا في النجى المصطفى بالرسالة فحق لها فيه الرجاء وزالت شبهة الشك بالاختبار، وقبلها العزيز في يوسف، ثم الصديق في الفاروق رحمة الله عليها، وأمير المؤمنين في الحجاج وما حسد الشيطان بأمر المؤمنين خاملا ولا شرق بغير شجن، ولقد سمعت لأمر المؤمنين في صالح صلوات الله عليه في ثقیف، مقالا هجم بي الرجاء لعدله عليه، بالحجة في رده بمحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر عن الله عز وجل بحكاية غر الملا من قريش عند الاختيار والافتخار، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم، قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فوقع اختيارهم عند الباهات بنفخة الكبر وكبر الجاهلية على الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار بهما صنوين، ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي، وما قدمتني يا أمير المؤمنين ثقیف في الاحتجاج لها وأن لها مقالا وحبا ومعاندة قديمة، إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشفق على سيده الم غضب والأمر إلى أمير المؤمنين عزل أم أقر، وكلاهما عدل متبع وصواب معتدل، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله».

قال نباتة: فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك فلما استوعبته سارفته النظر على الهيئة منه، فصادف لحظي لحظه، فقال:

- «قطعه ولا تعلمن بما كان أحدا».

لما مات عبد الملك فشى عني الخبر.

بين الحجاج وأنس بن مالك

وهناك قصة ثانية جرت بين الحجاج وأنس بن مالك خادم رسول الله، فقد شتم الحجاج أنس بن مالك وأغرق في إيدائه، فكتب أنس إلى عبد الملك بالأمر يشكوه، وأدرج كتاب الحجاج في جوف كتابه.

قال إسماعيل ابن عبد الله بن أبي المهاجر: بعث إلي عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث إلي في مثلها، فدخلت عليه، وهو أشد ما كان حنقا وغيظا، فقال:
- يا إسماعيل، ما أشد علي أن تقول الرعية ضعف أمير المؤمنين، وضاق ذعره في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لا يقبل له حسنة، ولا يتجاوز عن سيئته. فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب إلي يذكر أ، الحجاج قد أضر به وأساء جواره، وقد كتبت في ذلك كتابين، كتابا إلى أنس بن مالك، والآخر إلى الحجاج، فأقبضهما ثم أخرج على البريد فإذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك، فادفع له كتابي وقل له: اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ولن يأتي أمر تكرهه إن شاء لله ثم اتت الحجاج فادفع إليه كتابه وقل له: قد اغتررت بأمر المؤمنين غرة لا أظن يخطئك نشرها، ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه، حتى تفهمني إياه إذا قدمت علي إن شاء الله.

قال إسماعيل: فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بأن بن مالك في منزله، فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين وأبلغت رسالته، فدعا له وجزاه خيرا. فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له:
- أبا حمزة أن الحجاج عامل، ولو وضع لك في جامعة لقدر أن يضرك وينفعك، فأنا أريد أن تصالحه.

قال: ذلك إليك. لا أخرج عن رأيك. ثم أتيت الحجاج، فلما رأني رحب وقال:
والله لقد كنت أحب أن أراك في بلدي هذا.
قلت: وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير ما أرسلت به إليك.
قال: وما ذاك، قلت: فارقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك.
قال: ولم؟

فدفعت إليه الكتاب، فجعل يقرأه وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه، ثم قال:
اركب بنا إلى أنس بن مالك.

قلت له: لا تفعل، فإنني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك، وذلك للذي أشرت عليه من مصالحته.

وكان كتاب أمير المؤمنين ما يأتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد. فإنك عبد طمت بك الأمور، فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك وعدوت طورك، وإيم الله لأغمرنك كبعض غمزات الليوث للثعالب، ولأركضنك ركضة تدخل فيها في وجارك، أذكر مكاسب آباءك بالطائف إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم، فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأة منك على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة نعماته ووسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته، وأظنك أردت أن تروزه بها لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها، فإن سوغتها مضيت قدما وإن غصت بها وليت دبرا، فعليك لعنة من عبد أخفش العينين أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين. وإيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما وانتهكت له عرضا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين لبعث إليك من يسحبك ظهرا لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك فيحكّم فيك بما أحب، ولم يخف على أمير المؤمنين نبوك ولكل منا مستقر وسوف تعلمون.

قال إسماعيل انطلقت إلى أنس فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج فلما دخلنا عليه قال:

- يغفر الله لك أبا حمزة عجلت باللائمة وأغضبت علينا أمير المؤمنين.

ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

فقال أنس إنك تزعم أنا الأشرار والله أسمانا الأنصار، وقلت أنا من أنجل الناس، والله يقول فينا «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا غير ذلك، فكان المخرج والمشتكى في ذلك إلى الله، وإلى أمير المؤمنين فتولى من ذلك ما ولاه الله، وعرف من حقنا ما جهلت وحفظ

من حقنا ما ضعيت، وسيحكم في ذلك رب هو أرضى للمرضى وأسخط للمسخط، في يوم لا يشوب الحق فيه الباطل ولا النور الظلمة، ولا الهدى الضلالة، والله لو أن اليهود أو النصرارى رأَت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يوماً واحداً لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين». قال: فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره وترضى عنه، وكتب برضاه وقبوله عذره، ولم يزل الحجاج له معظماً هائباً حتى هلك رضي الله عنه.

جواب الحجاج

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدا مناه، فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم علي بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه، يذكر شتيمة وتوبيخي بأبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه، ويذكرني أمير المؤمنين جعلني الله فداه استطالة مني على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جراءة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة نغماته وسطواته على من خالف سبيله، وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي فأملهني ولم يجعلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طباعه وما قلده الله من أمور عبادته، فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وإفراخ كربتي فقد ملئت رعباً وفزعاً من سطوته وفجأة نغمته، وأمير المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات ومضاعف له الحسنات وأعلى له الدرجات أحق من صفح وعفا، وتغمد وأبقى ولم يشمت في عدواً مكباً ولا حسوداً مصباً ولم يجرعني غصصاً، والذي وصف أمير المؤمنين من صيغته إلي وتوبهه لي بما أسند لي من عمله وأوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه، مجزي بالشكر عليه والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب بالكفاية، وقد عاين إسماعيل

بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه من نزولي عند مسرة أنس بن مالك وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين، وإفلاقه إياي ودخوله بالمصيبة على ما سيعلمه أمير المؤمنين، فإن رأى أمير المؤمنين طوقني الله بشكره وأعانني على تأدية حقه، وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته، ومد لي في أجله أن يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي يطمئن به قلبي فقد ورد علي أمر جليل خطبه، عظيم أمره، شديد علي كربه، أسأل الله أن لا يسخط أمير المؤمنين وأن يثبتته في حزمه وعزمه وسياسته وفرساته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه مما يحمد به حسن رأيه، بعد همته وأنه ولي أمير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في أمره والسلام.»

فحدث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال:

- يا كاتب أفرخ روع أبي محمد.

فكتب إليه بالرضا عنه، ويرى القارئ من كتاب عبد الملك هذا وجوابه للحجاج والي العراق من قبله أن القوم كانوا يستجرون العقوبة بالثتم والإفحاش في السب واللعن عند عظم الجناية وكيف يتملق الضعيف للقوي، ويحتمل ما يرد عليه منه ويتلقاه بالرضا والتسليم.

وفي الواقع فيما ذكرناه من هذين الكتابين، وتكلفناه من نشرهما قد أغفلنا أموراً كثيرة فيها إحراج فظيع، وتوبيخ شديد، ما كان يجب أن يصدر مثله من أمير المؤمنين، وهو الذي يستطيع أن يقطع ويصل، ويعزل ويبقي، ولكنها عادة درجة، لم يكن القوم كما يظهر يجدون فيها شراً ولا حرجاً.

موت عبد الملك بن مروان وخلافة الوليد بن عبد الملك

نشاط الحجاج في سياسة الفتوح

انتهت الثورات العراقية المختلفة، على النحو الذي بسطناه في الفصول السابقة، وقد رأينا كيف انصرف الحجاج بعدها إلى الأخذ بسياسة الشدة والقمع، غير متطلف ولا متكلف لونا واحدا من الإحسان أو الحلم، ومن غريب أمره إنه ما كاد ينتهي من تهدئة الثورات في قطره حتى انصرف إلى بسط سلطان الإمبراطورية العربية فيما وراء النهر، ومنغوليا والهند إلى السند وقد بقي الحجاج في واسط لا يتحرك منها، ولكنه كان يبعث البعث ويوجد الجنود، ويعين القواد، ويذهب بفخر الانتصارات المختلفة.

ومن المؤكد لدينا اليوم أن غلبة الحجاج على الخوارج والثورات الداخلية المختلفة، هو الذي مكن هذه الفتوح، ولولا ذلك، لظلت هذه الأمصار البعيدة السحيقة، بعيدة عن سيوف العرب المسلمين...

ولكن هناك مستشرقاً فرنسياً يدعى «رينو» رأى في هذه الفتوحات التي قوم بها قواد الحجاج، غير ما نراه نحن، فهو يذهب إلى أن غاية الحجاج منها كان لمصلحته الخاصة لا للمصلحة الإسلامية العربية العامة، فقد كان الحجاج يخشى تبدل نجمه، وانقلاب أمره، وإفلات الأمر من يده، فذهب يهدد لباقيات أيامه بفتوح جديدة يستطيع الالتجاء إليها حين يهوي نجمه، ويذهب سلطانه، ونظريته هذه غريبة، هي أقرب إلى الخيال منها إلى الأمر الواقع والشيء المنظور... وشيء آخر أيضاً وهو أن الحجاج في الواقع كان يعلم علم اليقين أن سلطانه مستمد من أمية وخلفاء أمية، وأنه ليستحيل عليه الاعتماد على غير بني أمية وجنود الشام في تثبيت سلطانه ومحاربة أعدائه وخصومه، ولذلك كان يخدم العرش الأموي خدمة الرجل الذي يخدم نفسه ويحافظ على حياته. فاتهامه إذا في الرغبة بشق عصا الطاعة إذا نزعوا عنه سلطانه أمر بعيد عن الاحتمال غريب عن الحقيقة...

والواقع أن المعارك بين العرب والترك على حدود خراسان كان دائماً وأبداً أمراً واقعا منذ عهد معاوية، فقد كانت هذه المنطقة الواسعة الأطراف ممزقة إلى دويلات

صغيرة يدفع بعضها الجزية للدولة العربية، ويرفض البعض الآخر ذلك، ولذلك كانت الزحوف والمعارك دائما تقع بين هذه الدويلات الصغيرة والدولة العربية الناشئة، هؤلاء يعملون للمحافظة على استقلالهم، وهذه تسعى لبيسط سلطانها عليهم...

فلما كان المهلب في خراسان سنة ٧٩ للهجرة، لم يوفق إلى انتصارات حربية رائعة، ولكنه تمكن من ضبط خراسان وتهدئة الأحوال فيها في الفترة التي كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث تهدد سلطان الحجاج في الشرق، وتعمل على تمزيق الروابط السياسية التي تربط العراق بأمية...

ومن المؤكد لدينا اليوم أنه لو انضم المهلب إلى ابن الأشعث، ومشى بجنوده لنصرته، لقصي على الحجاج القضاء المبرم، ولتمزقت الإمبراطورية العربية إلى دولتين كبيرتين واحدة في الشرق وأخرى في الغرب...

ففي سنة ٨٠ للهجرة قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فحاصرها، بينما كان ابنه يزيد يحارب ملك الختل، ويتغلب عليه، وفي هذه الأثناء مات المغيرة بن المهلب بخراسان، وكان قد استخلفه أبوه المهلب عليها، فمات في رجب سنة ٨٢ للهجرة، فأتى الخبر يزيد بن المهلب، وأهل المعسكر، فلما علم المهلب بالفاجعة استرجع وجزع حتى ظهر جزعه، ثم دعا يزيدا ووجهه إلى مرو ووصاه بما يعمل وأن دموعه تنحدر على لحيته.

ثم صالح المهلب أهل كش ورجع إلى مرو فمات في مرو الروز واستخلف ابنه يزيد ليقوم مقامه من بعده.

ولما علم الحجاج بوفاة المهلب أقر ابنه يزيد على خراسان وكان موت المهلب في سنة ٨٢ للهجرة.

فلما جاءت سنة ٨٤ للهجرة، فتح يزيد قلعة (نيزك)، وكان قد وضع عليها العيون، فلما بلغه خروج (نيزك) عنها، سار إليها فحاصرها، فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحصن القلاع، وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيما وإكبارا، ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح، وكان يكتب له يحيى بن يعمر العدواني فقال «أنا لحقنا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرونا طائفة،

ولحقت طائفة برؤوس الجبال، وعرائر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأثناء.»

فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟

ف قيل: يحيى بن يعمر، فكتب إليه ليحمله على البريد، فقدم إليه أفصح

الناس، فقال له الحجاج:

- أين ولدت؟

قال: بالأهواز.

قال: فهذه الفصاحة!

قال: حفظت من كلام أبي، وكان فصيحاً.

قال: أخبرني هل يلحن عنبة بن سعيد؟

قال: نعم كثيراً.

قال: ففلان؟ قال: نعم.

قال: فأخبرني هل ألحن أنا؟

قال: نعم تلحن لحنا خفياً، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً.

فقال له الحجاج. قد أجلتكَ ثلاثاً، فإن وجدتكَ بأرض العراق بعدها قتلتكَ...

فإذا كانت سنة ٨٥ للهجرة عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان،

واختلف الرواة في سبب ذلك، وإن كان الحجاج في كتابه إلى عبد الملك بن مروان

يستأذنه فيه بعزل يزيد، يتهمهم بأنهم (زبيرية) فكتب له عبد الملك يقول:

- إني لأرى طاعتهم لآل الزبير نقصاً بآل المهلب، وفؤاهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي...

فكتب إليه الحجاج يخوفه غدره فكتب عبد الملك إليه:

- أنت قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلاً يصلح لخراسان فسمى

قتيبة بن مسلم.

فأذن له عبد الملك عندئذ بعزل يزيد. فكره الحجاج أن يكتب له بذلك،

فكتب إليه يأمره أن يستخلف أخاه المفضل ويقبل إليه. ففعل، وخرج يزيد

من خراسان في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأقر الحجاج أخاه المفضل تسعة

أشهر، ثم عزله... وقيل أن السبب في عزله أن الحجاج لما فرغ من عبد الرحمن

بن الأشعث، لم يكن له هم إلا يزيد بن المهلب وأهل بيته، وقد كان أدل أهل العراق كلهم إلا آل المهلب ومن معهم بخراسان.

ويقال أيضا أن الحجاج كان يبعث إلى يزيد ليأتيه، فيعتل عليه بالعدو والحروب، فكان ما كان من اعتزامه عزله.

والواقع أن عزل يزيد بن المهلب مع صدقه في الخدمة، وإخضاله لآل أمية وللحجاج، أمر يستفقت النظر، ويبعث على إطالة الفكرة، والحجاج في الواقع كان غريبا مع عماله، شديدا عليهم، يحاول حملهم على رأيه حتى في سير الحروب، وخطط الزخوف، مع بعده عن ساحة العراك، وقلة معرفته بالحرب والقتال، وقد يكون من الأسباب التي حملت الحجاج على التنكر لآل المهلب، ما استطار من شأنهم، وفشا من أمرهم، وازدياد حب الناس لهم، وإذا فنحن أمام ظاهرة هي أقرب إلى الحسد منها إلى شيء آخر...

ولاية العهد

وتمضي الأيام فيفكر الحجاج في ولاية العهد بعد عبد الملك، وبخشي أن يقضي عبد الملك نحبه على حين غرة، وهو شيخ كبير فيلي الخلافة من بعده أخوه عبد العزيز بن مروان، ولي العهد، ولم يكن يعطف على الحجاج ولا يثق به، وكان الحجاج يعلم ذلك، ويستشعر في قرارة نفسه خوفا من عواقبه، وفتقت له الفكرة يوما وبعد أن خلا له الجو في العراق واستتب الأمن وذلك في أوائل سنة ٨٥ للهجرة، فكتب لعبد الملك كتابا يزين له البيعة للوليد من بعده، وكان عبد الملك يفكر في ذلك طويلا، ولكنه لم يكن يجرؤ عليه. فلما وصله كتاب الحجاج وكان قد نصحه روح بن زباع بمثل ذلك قبلا، واستقام له الرأي في ذلك، كتب إلى عبد العزيز بن مروان فقال:

- رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك.

فأبى عبد العزيز، فكتب إليه عبد الملك ليجعل هذا الأمر له، ويجعله للوليد من بعده، فكتب إليه عبد العزيز:

«أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد» فكتب إليه عبد الملك ليحمل إليه

خراج مصر، فكتب عبد العزيز:

«إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا، وإننا لا ندرى أينما يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لا تفسد علي بقية عمري فافعل».

فرق له عبد الملك وتركه وقال للوليد وسليمان:

- أن يرد الله أن يعطيكما الخلافة، لا يقدر واحد من العباد على رد ذلك. وبعد أشهر مات عبد العزيز، فلما أتى خبر موته عبد الملك، أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا، وكتب بالبيعة لهما إلى كل الأمصار.

وفاة عبد الملك

وفي منتصف شوال سنة ست وثمانين للهجرة، توفي عبد الملك بن مروان وكان يقول «أخاف الموت في شهر رمضان وفيه ولدت، وفيه فطمت، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناس» فمات للنصف من شوال حين أمن الموت في نفسه، وكان عمره ستين سنة، وقيل ثلاثا وستين سنة، وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال...

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء:

- إن شرب الماء مات...

فاشتم عطشه يوما فقال: يا وليد اسقني.

قال: لا أعين عليك.

فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء.

فمنعها الوليد، فقال: لتدعنها أو لا خلعتك...

فقال: لم يبق بعد هذا شيء.

فسقته فمات. ودخل الوليد عليه وابنته فاطمة تبكي عند رأسه فقال:

- كيف أمير المؤمنين؟

فقال له: هو أصح.

فلما خرج تمثل عبد الملك:

ومستخبرات والدموع سواجم

ومتخبر عنا يريد لنا الردى

وأوصى بنيه فقال: «أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية، وأحصن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، وانظروا مسلمة فأصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومحببكم الذي عنه ترمون، وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ البلاد وأذل الأعداء، وكونوا بني أم بررة، لا تدب بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أحرارا، فإن القتال لا يقرب ميتة، وكونوا للمعروف منارا، فإن المعروف يبقى أجره وذكره، وضعوا معروفكم عند ذوي الإحسان فإنهم أصون له، وأشكر لما يؤول إليهم منه، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب، فإن استقاموا فاقبلوا، وإن عادوا فانتمموا.»

عبد الملك في مرضه

وكان عبد الملك عاقلا حازما أديبا لبيبا عالما، وقال زياد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان.

وقال جعفر بن عقبة: قيل لعبد الملك:

- أسرع إليك الشيب؟

فقال: شيبني ارتقاء المنابر، وخوف اللحن.

وقال عبد الملك عن نفسه: ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر مني، وإن

ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام، ولكنه لبخله لا يصلح أن يكون سائسا.

وقال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرضه:

- كيف تجدك؟

قال: أجنبي كما قال الله تعالى «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول

مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم. الآية»

وقال المفضل بن فضالة عن أبيه: استأذن قوم على عبد الملك بن مروان

وهو شديد المرض، فدخلوا عليه، وقد أسنده خصي إلى صدره، فقال لهم:

- إنكم دخلتم علي عند إقبال آخرتي، وأدبار دنياي، وإني تذكرت أرجي

عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله وأنا خلو من هذه الأشياء فإياكم

وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها...

ويروى أن عبد الملك بن مروان لما اشتد مرضه قال: «ارفعوني على شرف»
- على محل عال - ففعلوا ذلك، فتنسم الروح، ثم قال:
- يا دنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير، وإن كبيرك لحقير، وإن كنا منك لفي
غرور، وممثل بهذين البيتين:

عذابا لا طوق لي بالعذاب أن تناقش يكن نقاشك يا رب
عن موسىء ذنوبه كالتراب أو تجاوز فأنت رب صفوح

صفات عبد الملك

وقد روى صاحب العقد، أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوما فقال:
«أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان بن عفان
- ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأمون - يريد يزيد بن
معاوية، فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا، ثم نزل»
وخطب أيضا الناس يوما فقال: أيها الناس إن الله حد حدودا وفرض
فروضا، فلما زلتم تزددون في الذنب تزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم
عند السيف».

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية فيما ذكره
المسعودي من أن بعض جلسائه قال له يوما: أريد الخلوة بك.
فلما خلا به قال له عبد الملك: بشرط ثلاث خصال: لا تطر نفسي فأنا أعرف بها
منك، ولا تختب عندي أحدا، فليست أسمع منك، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب.
قال: أتأذن في الانصراف.

قال: إذا شئت.

وقال عبد الملك لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر
به، وأصنع الشر فلا أساء به...

فقال: الآن تكامل فيك موت القلب.

وكان عبد الملك أول من غدر بالإسلام، وقد تقدم فعله بعمرو بن سعيد،
وكان أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من نهى عن الكلام في

حضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعونهم، وأول خليفة بخل، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف فإنه قال في خطبة بعد قتل ابن الزبير: «ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقالي هذا إلا ضربت عنقه.»

خلافة الوليد بن عبد الملك

ولما دفن عبد الملك بن مروان انصرف الوليد عن قبره فدخل المسجد وصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فخطبهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا ... فكان أول خليفة عزى نفسه وهناها.

القوة الروحية

تسلم الوليد بن عبد الملك عرش الخلافة في سنة ٨٦ للهجرة، والسلام الداخلي يغمر الإمبراطورية العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقد كان من أثر هذا السلام الذي كان ضروريا للإمبراطورية في هذا العهد، إن عادت الفتوح إلى سباق عهدها، ومشت رايات العرب المسلمين إلى ما حولها من الأمصار والبلاد التي كانت بحاجة إلى هذا الفتح، يعزز أمورها ويثبت شوونها، ويوطد نظمها، ويحمل إليها هذه المثل العربية العليا في السياسة والإدارة والعدل والنظام...

ولقد اشتهر في عهد الوليد أربعة من القواد كان لهم أثر عظيم في هذه الفتوحات العظيمة التي انتظمت في المشرق، وانتظمت في المغرب حتى بلغت الحدود الفرنسية، واكتسحت إسبانيا، ولو شاء ربك لامتدت منها إلى بلاد الغال - فرنسا - وبلاد الألمان، ثم نزلت إلى القسطنطينية فجمعت بذلك بين المشرق والمغرب في صعيد واحد، كان حتما - لو تم هذا وأصبح أمرا منظورا - أن يتبدل وجه التاريخ، وأن تظهر على أديم هذه الأرض دنيا جديدة ليست تسابق هذه الدنيا التي نراها اليوم في كثير ولا قليل...

كان الإسلام يضطرب في حياة روحية، لم يرى العالم مثيلا لها منذ انبثاقه حتى يومنا هذا، والذين يذهبون إلى أن مصير الإنسانية معلق برخائها المادي، وأن تطورها إلى المثل العليا والكمال متأثر بهذا الرخاء، يخطئون خطأ عظيما ما في ذلك شك ولا ريب..

فالتاريخ الذي نتلطف في تسوية فصوله هذه شاهد على أن مصير الإنسانية مرتبط بحياتها الروحية وبالإيمان كل الإيمان بهذه الحياة الروحية، وتاريخ المسلمين الأولين يوم ركبوا الصحراء إلى مشارف الشام وحدود فارس أكبر دليل على أن حياتهم الروحية الرائعة مكنتهم من الغلبة على الحياة المادية الجامدة التي كانت تضطرب في فارس، وتغمر الروم، وتسيطر على العالم القديم في ذلك العهد القوي.. وتاريخ الخوارج نفسه شاهد أيضا على حياتهم الروحية، وإيمانهم القوي بهذه الحياة الروحية، وقد مكنهم هذا من محاربة جيوش الإمبراطورية العربية مدى أربعين عاما، ما انكسر لهم فيها لواء، ولا انهزم جيش، ولا تضعضع جحفل، وسبب ذلك أن

حياتهم الروحية كانت أقوى من خصومهم، وكذلك نرى أن القوة المادية إذا كانت تستطيع قهر القوة المادية فهي عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية...

القوة الروحية عند محمد «ص» وأنصاره

كانت الوثنية الدين الغالب في بلاد العرب حين مشى محمد «ص» من غار حراء يدعو أهله إلى الإيمان بالله وحده، والعبودية له وحده، والمساواة أمامه والإخاء فيه، وكان للنصرانية واليهودية دعاة في بلاد العرب، وكان لهما اتباع وأنصار، وكانت المجوسية الفارسية معروفة، ففارس كانت تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة واليمن، وكان أهل مكة أصحاب سلطة ومجد، وأصحاب تجارة ومال وخير وأولي بأس مادي شديد، ومع ذلك فإن القوة الروحية التي دعا بها محمد «ص» إلى التوحيد تغلبت على أموالهم وبطشهم وبأسهم، وما هي إلا الأيام تسير الشمس حتى اقتلعتهم من عروشهم وأجلست عليها أقواما غيرهم من المستضعفين...

هذه القوة الروحية التي مكنت من بسط سلطانها في الجزيرة، عادت فمشت من الجزيرة إلى الحدود البعيدة، والأنهر العذبة، فدانت أمامها القوة المادية، ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد العرب حتى كان الذين دانوا بالإسلام مئات الألوف، وحتى كانت قوة الإسلام الروحية قد غزت القلوب والعقول ببساطتها ومخاطبتها النفس الإنسانية في أعظم نواحيها سموا وعظمة، لكن أوضاعا مادية من أوضاع أهل الأديان الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن تسربت إلى بعض نواحيه، كما أن دعايات سياسية عملت جهدها لتكثر من هذه الأوضاع المادية ولكنها لم تكن من الخطورة بحيث تفسد الفتوح الإسلامية التي ما لبثت بعد أن تمكنت من القضاء على الخوارج أن أخذت تمشي إلى مشرق الأرض تارة، ومغربها أخرى، وكذلك عادت القوة الروحية التي امتاز بها الإسلام إلى سابق عهدها وروعيتها، فكان من أثر ذلك هذا النجاح العظيم الذي أحرزته جيوش الإسلام في حروبها الجديدة.

فتوحات قتبية بن مسلم

لقد اشتهر في عهد الوليد أربعة في القواد البارعين، قتبية بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد.. فأما

قتيبة فقد ولاة الحجاج خراسان سنة ٨٦ للهجرة، فخرج إلى بلخ، فتلقاها دهاقينها وعظماؤها وساروا معه، ولما عبر النهر استقبله ملك الصغانيين بالهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلاده فمضى معه فسلمها إليه، لأن ملك آخرون وشومان كان يسيء جواره، وسار قتيبة بعدها إلى آخرون وشومان فصالح ملكهما على فدية أداها إليه. وغزا قتيبة في سنة ٨٧ للهجرة بيكند وهي بلدة بين بخاري وجيمون، حيث أغار على الصغد وقتلهم قتالا شديدا فانهزموا وتفرقوا، ثم طلبوا من قتيبة الصلح فصالحهم وولي عليهم واليا من قبله، غير أنهم ما عتموا أن انتهزوا فرصة غيابه، فثاروا على عامله وقتلوه، فعاد إليهم واقتحم مدينتهم عنوة، ونقب سورهم، وقتل من كان فيها من المقاتلة، وغنم منهم غنائم عظيمة ثم قفل راجعا إلى مرو..

وكان الحجاج كثير الاهتمام لفتوح قتيبة بن مسلم، وكان قتيبة لا يتأخر عنه بالرسائل والأخبار، يأخذ رأيه، ويمشي على طريقته، فلما كان قتيبة يحاصر بيكند وقد استنصر أهلها الصغد واستمدوهم فأمدوهم في جمع كثير، وأخذوا الطرق على قتيبة لم ينفذ لقتيبة رسول إلى العراق مدة شهرين فاضطرب الحجاج وأشفق على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد..

وفي ربيع سنة ٨٨ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم، وواصل فتوحاته فحالفه النصر في بلاد كرمينية بعد عناء شديد غلب فيه الترك وأهل فرغانه، ثم سار إلى بخارى فلقى في فتحها عناء كبيرا، وأخيرا تمكن من فتحها وصالحه أهلها... وفي سنة ٩٣ للهجرة فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا، ثم غزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد وساتخلف عليها عبد الله بن مسلم، ثم رجع إلى مرو، وفي العام التالي توجه إلى فرغانه وسار حتى بلغ حجنده فاشتبك مع أهلها في حروب شديدة أحرز فيها نصرا عظيما، ثم انصرف إلى كاشان ففتحها وعاد إلى مرو...

تقدير الوليد له

وأتاه كتاب الوليد بن عبد الملك في هذه الأثناء يقول له فيه: «قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير

المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت به».

وسار قتيبة في سنة ٩٦ للهجرة إلى حدود الصين على رأس جيش عظيم، فلما كان في طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك - واكن الحجاج قد توفي قبله - فلم يعقه ذلك عن الغزو. وواصل سيره حتى اقترب من الصين، فأرسل إلى مليكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي، وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين يحاورهم:

- انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عوفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه».

فقال هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خليه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه...

فأجابه ملك الصين: فما الذي يرضي صاحبك؟

فقال هبيرة: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية..

فقال الملك: فأنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاه... ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد... فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطأ التراب ثم عاد إلى مرو..

محمد بن القاسم

أما محمد بن القاسم فإنه سار إلى السند سنة ٨٩ للهجرة بعد أن جهزه الحجاج بكل ما يحتاج إليه حتى الأبر والخيوط فنزل بثغر الديبل وظل يحاصره حتى تمكن من الاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا، وأخذ في مواصلة الفتوح حتى بلغ مهران حيث التقى بدهر ملك السند، وكان هذا لما بلغه خبره استعداد لمحاربتة فلقية محمد والمسلمون وهو على فيل

وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديدا، ثبت فيه المسلمون حتى ظهوروا على عدوهم
فهزموه وقتلوا داهر ملكهم وفي ذلك يقول قاتله:

ومحمد بن القاسم بن محمد	الخيلى تشهد يوم داهر والقنا
حتى علوت عظيمهم مهنده	أبي مرقت الجمع غير مرغب
متعفر الخدين غير موسد	فتركته تحت العجاج مجندلا

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة راور عنوة، وتابع
فتوحاته حتى وصل إلى (مولتان) "مركز مشهور للحجاج يقع في جنوب بلاد
النيجاب" فقاتله أهلها، فانتصر عليهم وغنم منهم غنائم عظيمة، ولما بلغه وفاة
الحجاج رجع عن المولتان واستمر في الفتوح حتى دانت له جميع بلاد السند،
فلما مات الوليد بن عبد الملك، وتولى سليمان ابن عبد الملك الخلافة عزله عن
السند وولي يزيد بن أبي كبشه الكسكسي البلاد مكانه..

موسى وطارق

وأما فتوحات موسى وطارق في إسبانيا وفرنسا، فقد بدأت سنة ٩٢ للهجرة
لما عبر طارق البحر ونزل في إقليم البحيرة من جنوب إسبانيا، فلما علم رودريك
بنزول العرب إلى بلاده أدرك ما يهدده من خطر عظيم، فسارع لملاقاتهم، فحاربه
طارق حربا شديدة هزم بها جنده، وكان يفوق جنده عددا وعددا، ثم أخذ
يزحف على مدن إسبانيا فاستولى على أشبيلية، وقرطبة، وطليلة.

ولما علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر دبت في نفسه الغيرة،
وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس، وأن يكون له نصيب من الغنائم، فأخذ
يعد جيشا كبيرا لإتمام فتح بلاد الأندلس، وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث
هو حتى يلحق به، ولكن طارقا مضى في سبيله يفتحم ما أمامه من البلاد، لأنه
رأى بعد استشارة رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر، ويعطي
العدو فرصة للاستعداد والتحصن، وجمع كلمتهم ولم شعثهم، فواصل فتوحه حتى
وصل إلى طليطلة كما قدمنا.

أما موسى فإنه خرج بجيشه سنة ٩٣ للهجرة، ففتح أشبيلية بعد أن حاصرها
شهورا - وكانت قد ثارت - ثم سار إلى ماردة، فاستولى عليها، ثم واصل السير حتى

لقي طارقاً فأنبه على مخالفة أمره، وطالبه بالأموال والنفائس التي غنمها ثم سجنه. فكتب طارق إلى الوليد بن عبد الملك بالأمر، فكتب هذا إلى موسى يأمره بتخلية سبيله وردّه إلى عمله، وسار الاثنان لفتح شمالي الأندلس، ففتحا أقاليم أرغونه وقتشاله وكتلونيا واستوليا على سرقسطه وبرشلونه، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس فتم بذلك فتح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ إليها أشراف القوم وكبرأؤهم.

فلما انتهيا من هذه الفتوح استدعاهما الوليد إلى دمشق، فمشى موسى إلى دمشق وقبل وصوله إليها مرض الوليد مرض الموت، فطلب سليمان ابن عبد الملك ولي العهد إلى موسى أن يترث في سيره إلى دمشق حتى يموت الوليد، طمعا بالحصول على الغنائم والتحف التي كان يحملها موسى، فأبى هذا ذلك عليه فحقد عليه سليمان بن عبد الملك حقدا عظيما ظهر أثره في حبسه وتعذيبه لما آلت إليه الخلافة بعد ذلك...

الحجاج والفتوحات

وليس من شك اليوم في أن الحجاج نفسه يجب أن يذهب بفخر هذه الفتوح، فهو الذي جهزها وأنفق عليها، وأمر بها، وسيرها وفاقا لرأيه، وإذا كان لنا أن ننتقد سياسة الحجاج القامعة، وإغراقه في العنف والقسوة والبطش، فإن علينا كمؤرخين منصفين أن نحمد له رأيه في هذه البعوث العظيمة، التي حملت رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند، فلولا شدته وحزمه ولولا جبروته وقوته لما كان بالإمكان الحصول على هذه الانتصارات العظيمة التي كلفت مالا طائلا والتي لم يكن يستطيع أحد أن يتحمل مسؤوليتها إلا الحجاج نفسه...

لقد كلفت حملة محمد بن القاسم التي انتهت بالاستيلاء على (المولتان) ستين مليون درهم، ولكنها حملت إلى بيت المال من الغنائم والأسلاب ١٢٠ مليوناً من الدراهم. والمستشرقون وإن كانوا لا ينكرون على الحجاج شدته وقسوته ومظالمه إلا أنهم لا ينكرون في الوقت نفسه أنه لولا هذه الشدة لما تمكن الحجاج من القضاء على الفتق الداخلية التي كانت تهدد الإمبراطورية العربية، ولا تمكن بعد القضاء على هذه الفتق من توجيه البعوث إلى ما رواء الإمبراطورية من الأقطار والممالك...

ويذهب بعضهم إلى أن زحوف العرب المسلمين الجديدة في المشرق والمغرب، كانت على غرار الزحوف السابقة قوة وسرعة وتضحية، وبينما كان العرب المسلمون يغزون الشرق الأقصى ويقتحمون الحدود الصينية والهندية، وبينما كان طارق يمشي على رأس جنوده في أرض الأندلس الجديدة، كان مسلمة بن عبد الملك يحارب الإمبراطورية البيزنطية والأرمن، بحيث لم ير الإسلام في عهده - إذا استثنينا عهد عمر بن الخطاب - عهدا كثرت فيه الزحوف، وانتشرت رايات الإسلام في مختلف البلاد والأطراف.

الإدارة في عهد عبد الملك بن مروان

إدارة عبد الملك

جرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده، وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد، فزادت الأمور استقراراً، والأعمال تسلسلاً، والعمال رغبة ورهبة، والرعايا أمناً ودعة، وكثيراً ما كان يعتمد إلى الشدة لا تأخذه رأفة بخصوم دولته، قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله ”ولكن الملك عقيم“.

ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال ”وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته، إلا باللين، فإن عثمان لان لهم حتى ركب، ولو كان غلظ عليهم جنباه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا“.

وقال: إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس أن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أي باللين أغير على الناس في بيوتهم، وقطعت السبل وتظلم الناس، وكانت الفتنة، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يعمله.

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وأمة، وقال عبد الملك يوماً: أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر، نسأل الله أن يعين كلا على كل. وسأله ابنه الوليد يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

ولما ولي عبد الملك العراقيين الحجاج بن يوسف الثقفي قال هذا:

- دلوني على رجل أوليه، فقيل له: أي الرجال تريد؟

قال: أريد دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة لا يحنق في الحق على مرة، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة. فقيل: ”عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي“ فأرسل إليه فاستعمله فقال له:

- ”لست أقبلها إلا أن تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك“.

فقال الحجاج: يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة

منه. فقال الشعبي: فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله، كان لا يجبس إلا في دين، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفن فيه حياً، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده، فرمى أقام أربعين يوماً لا يؤتي إليه بأحد، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة.

وخطب الحجاج أهل العراق: ”إني رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، حتى يلقي الرجل أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم“.

ولما اتصل بعبد الملك إسراف الحجاج في القتل وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه: أما بعد فقد بلغني سرفك في الدماء وتبذيرك الأموال، وهذا ما لا احتمله لأحد من الناس، وقد حكمت عليك في القتل بالقود، وفي الخطأ بالدية، وأن ترد الأموال إلى أصحابها، فإنما المال مال الله ونحن خزانه، وقد متعنا بحق أعطينا باطلا.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه: ”لا تكن على درهمك المأخوذ أحصر منك على درهمك المتروك، وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما“.

الحجاج وكرمه

وكان الحجاج يأخذ بأيدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ولا يشاركونه في سلطانه، ويضع في كل يوم ألف خوان في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر، وكان يحمل في محفة ويदार به على موائدها يتفقدتها، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وعسى الخباز ليحى بسكرها فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر، أمر بضربه مائي سوط، فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر. وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام ابن عبد الملك يضع خمسمائة خوان، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره، فكان عند الناس أحمد.

واشتهر عهد الحجاج بإصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة بإصلاحاته، ولم يكن مصلحا فحسب بل كان مصلحا وموجدا، ومن إيجاده وضع الحركات والأعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن. واتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطبايعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والتسوقة والبهرجة، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطبايعين وختم أيدي الطبايعين.

وصية عبد الملك لابنه

وحرض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر قائلا له: انظر أي بني إلى أهل عملك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وأن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة، واعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وأياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون، وأنت سكان الغضب مطفأ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فيكونوا أصحابك وجلساءك، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا واستخلف الله عليك.

وهذا من أجمل أساليب الإدارة وسياسة الناس: لا تأخير في الفصل بينهم، ولا كذب في الوعود والمواعيد، واستشارة العارفين والعالمين، وجعلهم وحدهم بطانة وسمارا وجلساء، ولا إسراع في إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب.

الرشوة!

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له: "والله إن كنت قبلت هدية لا تنوي مكافأة المهدي لها أنك لئيم دنيء، وإن كنت قبلتها تستكفي رجلا لم

تكن تستكفيه لولاها أنك خائن، وإن كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وأن لا تخون له أمانة ولا تتلم له دينا فلقد رضيت ما بسط عليك لسان معامليك، وأطمع فيك سائر مجاوريك، وسلبك هيبة سلطانك.“
ثم صرفه عن عمله.

وذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها الحقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معا.
وكان عبد الملك بن رفاة أمير مصر يقول:

- إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطلق.

عبد الملك والجزية

وأدخل عبد الملك أمورا جديدة في الإدارة وهو أول من أفرد للظلمات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر، وكان إذا قصد القضاء أقيم على رأسه بالسيوف.

وزاد عبد الملك الجزية، وأقل الجزية دينار وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة - وكانت دينارا على كل جمجمة ومدين قمحا، وقسطين زيتا وقسطين خلا، وضعها عليهم عياض بن غنم في الفتح - فأحصى عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضرب به عليهم الإمام من الحوائج كإصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم.

نقل الدواوين إلى العربية

وفي أيامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية، فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية كافة، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم، فأصبحت البلاد

عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها. وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشني من أهل الأردن أول مسلم ولي الدواوين كلها، وكان يتولاها القبط والروم والعجم، وكان بالبصرة والكوفة ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية، وديوانان بالفارسية، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك، وديوان بالرومية، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلمانة وتلاميذه، ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزاري من أهل حمص، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الإدارة، فإن أول من كتب بالعربية في ديوان أصبهان سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدعوة. وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل أصبهان، يقال أنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه.

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبي في الطوامير، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم، والدراهم كسروية وحميرية قليلة، فهو أول من ضرب الدراهم المنقوشة، وكان على خاتمه قبيصة أبو ذؤيب والبريد إليه، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها. ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة، ومن أعماله أن يجنب الناس ويحافظ على الخليفة، وكان الأمريون لا يأذن خلفاؤهم بالدخول عليهم إلا بالترتيب الذي عينوه. والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهيل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال. وقد يتنقلون في عمالاتهم، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفي البصرة مثلها، وهو أول من سير بين يديه بالحرب والعمد، واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه. وكانت تقرأ عهود القضاء الذين نصبوا حديثاً في المسجد الجامع أولاً، وكان الجامع في الإسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان.

أما الولاة فيديرون ولا يأتيهم في المعسكرات، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة. و"ليس من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة، ويرابطون بها إذا وردوها، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة" وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول في القرى لشدة البرد في الشتاء يؤيه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون.

جيش عبد الملك

وكان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربي، ولما توسع الأمويون في فتوحهم شمالي أفريقية وفتحوا الأندلس جندوا أناسا من البربر ومزجهم بجند العرب.

بعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق، وكان فيهم من العرب كندة وغسان وقيم وهمدان وربيعة وطبي ولخم وجذام وقيس وجماعة بني أمية وقريش ورؤساء أهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر. ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفا من أهل البأس والنجدة، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفا، وولي على رؤساء كل طائفة واحدا منهم. ويقول البلاذري أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساءه وحمل ناس ممن معه نساءهم. وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجد في القتال للغيرة على الحرم.

وكانت أمور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم بها القبائل المهاجرة إليها، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصا بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية، وبفضل هذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا في الحروب الأهلية الكثيرة التي جرت في عهدهم.

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا، وكذلك كان في التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبدا أن يكيّدوا للمسلمين. ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إلى ملكهم في كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الأمة على الملك لما دعا عمرو

بن سعيد بن العاص الأشدق إلى نفسه بالخلافة، واستولى على دمشق لما سار عبد الملك بجيوشه إلى العراق، ليملكها من ابن الزبير. فعمل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال علي، فصالح الروم على مال يؤديه اليهم، وليس من الحزم في دولة أن تحارب حربين داخلية وخارجية في وقت واحد. وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا ويقاسم ملكهم على خراج قبرص وأرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيون من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم، وآل اللبنانيون بعد ذلك أن لا يتعرضوا للعرب، فلقب اللبنانيون بالمردة لأنهم عصوا أمر ملك الروم. وما كان عبد الملك إلا محافظا على اعتداله ورباطة جأشه بروية وتعقل وصبر.

ويعد عبد الملك في العلماء كما يعد من أكبر الساسة. قال الجاحظ:

- كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا. وهو أول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لأمر الله ثم لقب الوليد المنتقم لأمر الله. ولم يشتهر بهذين اللقبين كبيرا. وأوصى عبد الملك أولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير، وأن يعرف الصغير حق الكبير، وحذرهم البغي والتحاسد، وأوصاهم بأخيهم مسلمة وأن يصدروا عن رأيه، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذي وطأ لهم هذا الأمر. أوصى به ولطالما تبرم من أعماله في حياته، والحجاج وزيد وعتبة بن أبي سفيان وخالد القسري الذي تولى العراق زمنا طويلا، وتقبيبة بن مسلم أمير خراسان وقاتح خوارزم وسمرقند وبخارى الذي دخل إلى ملك الصين وضرب عليه الجزية وأمثالهم، كانوا في بني أمية "قطب الملك الذي عليه مدار السياسة، ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور، وجربوا الدهور، فاحتملوا أعباءها، واستفتحوا مغالقتها حتى استقرت قواعد الملك، وانتظمت قلائد الحكم، ونفذت عزائم السلطان."

الوليد بن عبد الملك

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى أخوته وحث أولاده على اصطناع المعروف، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد الضياع فقلده رعاياه في ذلك، فكان الناس في أيامه يخوضون في رصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات لوفرة الثروة في أيدي الناس. وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك: أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد. وأجرى الوليد على القراء وقوام المساجد الأرزاق، وكذلك على العميان وأصحاب العاهات والمجذمين، وأحمد كل واحد منهم خادما، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة. وذلك للشاميين خاصة، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف، وفي مئات الألوف من الدنانير التي أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع، وما كان خزائنه من الأموال التي تكفي الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعدادا للطوارئ.

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام في الإدارة وانتهى تعريب المملكة والإدارة، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونحي آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها. وظهرت أبهة الملك والسلطان، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر، تخليدا للذكرى وإشادة بالفخر، والوليد هو الذي جود القرايطيس وجلل الخطوط وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف. ثم جرى الأمر بعدها على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الأطناب. وكان الوليد موقفا في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد. ومن خلق الوليد أنه كان سمحا يسره أن يرى لعماله شيئا من الرفاهية. كتب إليه الحجاج أنه

أصيب لمحمد ابن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمة الله، وأن تكون من خيانة فلا رحمة الله. فكتب إليه الوليد أن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللتها له، وأمره أن يترحم عليه. وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم، وكان القاضي بمصر مثلاً يرزق ألف دينار في السنة. كان ابن حجيرة الأكبر في مصر (٦٩-٨٣) على القضاء والقصص وبيت المال، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار، وفي القصص مائتي دينار، ورزقه في بيت المال مائتي دينار، وعطاؤه مائتي دينار، وجائزته مائتي دينار. على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطي العامل سوى رزق واحد. ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا. وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم المقام به ويوضع الغزو عنهم. أما الحجاج فإنه كان يشتد في تجنيد الناس لأنه يقظ حذرا دائما فكان لا يدع قريشا ولا رجلا من بيوتات العرب إلا أخرجه "و ضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان، فكانت المرأة تجئ إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول له: بأبي، جزعا عليه، فسمى ذلك الجيش، جيش بابي". وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويجند السليم. وخطب الحجاج لما جاء واليا على العراق، وقد بعث بشر بن مروان المهلب إلى الحرورية ومما قال: "وأياي وهذه الزرافات الجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيهم أنتم، والله لتستقيم على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل شغلا في جسده، ومن وجدته بعد تالثة من بعث المهلب سفكت دمه، وانتهبت ماله وهدمت منزله". فشم الناس بالخروج إلى المهلب. ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفة وعماله في الأقطار، تشبه الجيش الدائم تحت السلاح، يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية.

الحجاج يصف نفسه

وقد كتب الوليد إلى الحجاج يطلب منه أن يصف له سيرته فكتب إليه يقول:
 "إني أيقظت رأيي وإنمت هواي، وأدنيبت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما

أعطيته حفا من لطيف عنايتي ونظري، وصرفت السيف إلى المريب المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب“.

عن عصيان أهل العراق

وقد كان الحجاج في سياسته شديدا على أهل العراق لعدم ثقته بهم، وخوفه من عصيانهم، ويقول الجاحظ في علة عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام: طغن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأموال، وما زال العراق موصوفا أهله بقلّة الطاعة بالشقاق على أولي الرئاسة“.

سياسة الحجاج إزاء الموالي

ويقول (فان فلوتن): - إن الحجاج كان يرى أن تعود بلاد العراق - مهد المعارضة التي قام بها الموالي - معقلا للجيش العربيّة كما كانت في عهد الخلفاء السابقين، ولذلك أصدر أمره إلى الموالي الذين كانوا يتطلعون إلى مساواتهم مساواة تامة بإخوانهم في الدين من العرب للعودة إلى أرضهم ودفن الجزيّة كما كانوا يدفعونها قبلا.

وقد ذكر لنا (فون كريم) كيف استطاع الحجاج أن يرغم هؤلاء المتجددين في الإسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار، ثم تلك المقاومة العنيفة التي قاوموه بها، بانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن بن الأشعث.

وروى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التي كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه قبلا - بعد أن أخذ بالنقصان بسبب دخول هؤلاء في الإسلام - لأن المسلم لم يكن يدفع ضريبة فكانت الضريبة والحالة هذه تؤخذ من غيره وسواه..

وقد أجمع المؤرخون العرب على أن سياسة الحجاج هذه جعلت العراق في أسوأ حال، وقد قال اليعقوبي: ”وكان الحجاج أول من أخذ بالقتل والظنة وقتل بهما الرجال، وانكسر الخراج في أيامه فلم يحمل كثير أمر، ولم يجمع الحجاج من كل العراق إلا خمسة

وعشرين ألف ألف درهم، وكان خراجه في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم...
وكذلك روى الطبري أن يزيد بن المهلب نظر لما ولاه سليمان بن عبد الملك
ما ولاه من أمر العراق في أمر نفسه فقال:

- أن العراق قد أخرج بها الحجاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى قدمتها
وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه، صرت مثل الحجاج أدخل على الناس،
وأعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها“.

ولكننا أمام هذا لا نستطيع أن ننكر على الحجاج أمانته في عمله فلم
يسمع عنه أنه اختزن المال في عهد ولايته، وقد مات في عهد الوليد بن عبد
الملك، ولم يترك وراءه غير سلاحه وبعض مئات من العملة الفضية.

العلاقات بين الخليفة والحجاج

ليس في التاريخ شخص وثق به ملك من الملوك أو خليفة من الخلفاء
كما وثق عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي بالحجاج بن يوسف عامله على
العراق وبلاد فارس وخراسان وما راءهما من أمصار وبلاد..

وإذا استثنينا بعض الحوادث الصغيرة التي عاتب فيها عبد الملك عامله
الحجاج وأفضى إليه بغضبه وإنكاره، فإن العلاقات بين الرجلين كانت ودية
لا تشوبها شائبة، حتى بلغ من ثقة عبد الملك أن أورثه لولي عهده، وأوصاه
بالاحتفاظ به وعدم التفريط في أمره..

والحجاج في الوقت نفسه كان مغرقاً في إخلاصه لعبد الملك بن مروان ولأهل
بيته، فكانت مصلحة عبد الملك فوق كل مصلحة عنده، وفوق كل اعتبار، وعبد الملك
كان يعرف ذلك، ويعلم أن الحجاج قد وطد له ملكه، وهزم أعداءه، وقتل خصومه..
خذ مثلاً قصة سعيد بن جبير وهو من الفقهاء أهل التقوى والصلاح،
فقد خرج مع ابن الأشعث، وكان الحجاج يأنف أن يعرض له مع تقواه وصلاحه،
فحدث يوماً أن أرسله خالد عامله على مكة إليه، بعد أن قبض عليه في بعض
شعاب مكة، فقال الحجاج: لعن الله خالداً أما كنت أعرف مكانه بل داره،
والبيت الذي هو فيه بمكة، ثم أقبل عليه فقال:

- يا سعيد ألم أشركك في إمامتي، ألم أفعل؟ ألم استعملك؟
قال: بلى.

فقال الحجاج: فما أخرجك علي.

قال: إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة...
فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شيء .. فقال سعيد:
- إنما كانت بيعة لابن الأشعث في عنقي..

فغضب الحجاج ثم قال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في
عنقك.. يا حربي اضرب عنقه.

ويظهر لنا من هذه القصة أن الحجاج ما كان يقتل سعيد بن جبير لو لم
يقدم هذا بيعة ابن الأشعث على بيعة عبد الملك.

الحجاج ومن شبب بأخته

وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن الحجاج كان يعفو حيناً عن خصومه إذا
كان الأمر لا يتعلق بعبد الملك وسلطانه، فمن ذلك أن محد بن عبد الله ابن نمير
الثقفي هرب من وجه الحجاج وكان يشبب بزینب بنت يوسف أخت الحجاج
وهو القائل فيها:

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة عطرات
يخبئن أطراف البنان من التقى ويخرجن شطر الليل متعجرات
فلما أتى به إلى الحجاج عفا عنه...

الحجاج والأموال العامة

وانظر إلى شأنه بعد وفاة شقيقه محمد بن يوسف فقد كتب إلى الوليد
بن عبد الملك يقول:

”أخبر أمير المؤمنين أكرمهم الله أن أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار
فإن يكن أصابها من حلها فرحمة الله عليه، وأن تكن من خيانة فلا رحمة الله عليه.“
فكتب إليه الوليد: أما بعد فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد بن
يوسف وإنما أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له فترحم عليه رحمة الله...

امتناع الحجاج عن الشراب

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه، وقد أكلا: هل لك في شراب فقال:

- يا أمير المؤمنين ليس بحرام ما أحللته، ولكني أمتنع أهل عملي وأكره أن أخالف قول العبد الصالح... ”وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه“ فأعفاه... والواقع أن علاقات الحجاج مع عبد الملك كانت أقوى منها مع خليفته من بعده، ولعل سبب ذلك هذا الأمد الطويل الذي طال به اتصال الرجلين وتحملهما أعباء الملك زمنا طويلا...

الحجاج والفتاة

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بقتل أسلم بن عبد البكري بشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج فقال:

- أمير المؤمنين غائب وأنت حاضر، والله تعالى يقول:
”يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبأ فتبينوا... الآية“ والذي بلغه عني باطل، فاكتب إلى أمير المؤمنين أي أعول أربعاً وعشرين امرأة، وهن في الباب فأحضرهن، فهذه أمه، وهذه عمه وزوجة وابنة فكان في آخرهن جارية صغيرة فقال لها: من أنت؟

قالت: ابنته أصلح الله الأمير ثم أشارت تقول:

أحجاج لم تشهد مقام بناته	وعماته يندبهن الليل أجمعا
أحجاج لم تقتل به أن قتلته	ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج أما أن تجود بنعمة	علينا وإما أن تقتلنا معا

فبكي الحجاج وقال: والله لا أعنت الدهر عليكن، ولا زدتنك ترضعنا.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بخبر الرجل والجارية.

فكتب إليه عبد الملك: إن كان الأمر كما ذكرت، فأحسن صلته وتفقد الجارية...

علاقات الحجاج مع الأمراء الأمويين

أما علاقات الحجاج مع بقية أمراء أمية فكانت متوترة كل التوترة، وسبب ذلك أن الحجاج كان في خدمته لعبد الملك وللوليد من بعده لا يفطن إلى غيرهما، ولا يولي وجهه سواهما، وكان الخلاف بينه وبين سليمان بن عبد الملك

كأشد ما يكون، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك فلا ينظر في كتبه، فكتب إليه ”بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف، سلام على أهل الطاعة من عباد الله، أما بعد فإنك امرؤ مهتوك عنه حجاب الحق مولع بما عليك لا لك، منصرف عن منافعك تارك لحظك مستخف بحق الله وحق أوليائه، لا ما سلف إليك من خير يعطفك، ولا ما عليك لا لك تصرفه في مهمة من أمرك، لا تسكت عن قبيح ولا ترعوي عن إساءة ولا ترجو لله وقارا، حتى دعيت فاحشا سبابا، فقس شريك بفترك وايم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ولأجعلنك شريدا في الجبال تلوذ بأطراف الشمال، ولأعلقن الرومية الحمراء بثدييها، علم الله ذلك مني فقدا غرتك العافية وانتحيت أعراض الرجال، فإنك قدرت فبذخت، وظفرت فتعديت فروديك حتى نظر كيف يكون مصيرك، إن كانت بي وربك مدة أتعلق بها وإن تك الأخرى فأرجو أن تؤول إلى مذلة ذليلة وخزية طويلة ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير والسلام.“

جواب الحجاج

فكتب إليه الحجاج: ”بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنك كتبت إلي تذكر أي امرؤ مهتوك عني حجاب الحق مولع بما علي لا لي، منصرف عن منفعي تارك لحظي، مستخف بحق الله وحق ولي الحق، وتذكر أنك ذو مصالفة، ولعمري أنك لصبى حديث السن، تعذر بقله عقلك وحادثة سنك فأما كتابك إلي فلعمري لقد ضعف به عقلك واستخف به حلمك، فله أبوك أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك، ورجاء الله دون رجائك، وأمت غيظك وأمت عدوك، وسترت عنه تدبيرك، ولم تنبه فيلتمس من مكایدتك ما تلتمس من مكایدته، ولكنك لم تشف بالأموار علما، ولم ترزق من أمرك حزما، جمعت أمورا ذلك فيها الشيطان على أسوأ أمرك فكان الجفاء من خليقتك، والحمق من طبيعتك وأقبل الشيطان بك وأدبر، وحدثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يعيبك، فتزحلق صخرتك

لقوله، واتسعت جوانبها لكذبه، وأما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها فأرجو أن يكرمها الله بهوانك وأن لا يوفق ذلك لك، إن كان ذلك من رأيك، مع أنني أعرف أنك كتبت إلي والشيطان بين كنتفيك، فشر محل علي شر كاتب، راض بالخسف، فأحرى بالحمق أن لا يدللك على هدى ولا يردك إلا إلى ردي، ومال بك الأمل وتحلب فوك للخلافة، فأنت شامخ البصر طامح النظر تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها، أنها نعمة

الله أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر، مع أنني أرجو أن ترغب فيما رغبت فيه أبو وأخوك فأكون لك مثلي لهما، وأن نفخ الشيطان في منخرك فهو أمرا راد الله نزعته عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك، ولعمري أنها النصيحة، فإن تقبلها فمثلها قبل، وأن تردها على اقتطعتها دونك، وأنا الحجاج“.

وفي جواب الحجاج تهديد ووعيد، يدللك على جبروته وغروره، خصوصا وسليمان بن عبد الملك ولي العهد، فإن أقبلت إليه الخلافة والحجاج حي، فمصير الحجاج سيكون أسوأ مصير..

ولكن الله أراد غير ذلك فقد توفي الحجاج في عهد الوليد، فلما ولي سليمان الخلافة تتبع أهل الحجاج وأنصاره وأصدقاءه فمزقهم تمزيقا وقتلهم قتلا ذريعا انتقاما من إهانة الحجاج له، عدم مبالاته بأمره..

خوف الحجاج من موت الوليد

وكان الحجاج في العراق يعلم بالخطر الذي يتهدهه فيما إذا مات الوليد ابن عبد الملك وهو حي يرزق في العراق، وقد أدرك بثاقب نظره أن سليمان ابن عبد الملك سيحاسبه حسابا عسيرا وسينتقم منه انتقاما عظيما، وكان للحجاج عيون في دمشق وفي قصر الخليفة، فمرض الوليد يوما مرضا شديدا أغمى عليه فيه، فظن أهله أنه فارق الحياة، فأرسل عيون الحجاج إليه بالخبر، فاضطرب اضطرابا شديدا، وأسقط في يده، وأحس بالخوف يغمر قلبه، فأطلق بصره إلى السماء، وقال: نحن إلى الله وإلى الله نعود...

وكان الحجاج كثيرا ما يطلب من الله أن يقبضه إليه قبل الوليد، مخافة أن يهان في آخرته، ويذل في أواخر أيامه، ومن حسن حظ الحجاج أن الوليد عاد إلى وعيه بعد إغمائه فأرسل الخبر إلى الحجاج، ففرح فرحا عظيما، وسجد إلى الله شاكرا حامدا، واعتق كثيرا من عبيده، وأرسل للوليد كثيرا من الهدايا، وبعث إليه بقوارير من أنبج الهند.

الحجاج وعائلته

ولقد بلغ من حظ الحجاج وعظيم شأنه أنه استطاع تزويج أنسابه من شباب ونساء بإشراف القوم في عهده والأمراء في زمنه، كما استطاع في الوقت نفسه أن يفضي إليهم بمختلف المراكز العالية والمناصب الرفيعة. فشقيقه محمد بن يوسف كان والي اليمن وكان شديدا مثله مغرقا في القسوة والبطش وقد بلغ من شأنه وخطره إن زاد الخراج في عهده، فجمع من ذلك مالا كثيرا، يحدثنا المؤرخون أن الحجاج وجد عنده بعد موته مالا يقل عن مائة وخمسين ألفا من الدنانير كتب بأمرها إلى الوليد كتابا أشرنا إليه في فصل سابق، فأجابه الوليد: أنه يعلم ذلك، وأنه أما جمع ماله هذا من تجارته، فليتركه والحالة هذه لأهله ولا يعرض له... ومن المؤكد لدينا أن الوليد سكت عن المال إكراما للحجاج وخدماته، وإكراما للميت وإخلاصه، ولو اتبع الوليد الحق والعدل لحجز مال (المرحوم) وصرفه إلى بيت المال، فليس يحق لعامل من العمال يأخذ راتبا من الخزانة العامة أن ينصرف لتجارة غير تجارة الوظيفة التي كلف القيام بأمرها، والعمل لخدمتها...

والقصة نفسها إلى ذلك تدلنا على مبلغ إخلاص الحجاج في عمله الإداري وتعطفه، وهو ما يؤدبه التاريخ كل التأيد.

وكان لمحمد بن يوسف والي اليمن هذا ثلاثة أبناء وفتاة، زوجها الحجاج ليزيد بن عبد الملك، الذي أصبح خليفة سنة ١٠١ للهجرة... فانظر إلى الحجاج يفشو أمره ويخطر شأنه حتى يوفق إلى تزويج بنات أخيه بالخلفاء أنفسهم...

وكذلك نرى أن الحجاج زوج ابنته الوحيدة بهروان ابن الوليد بن عبد الملك.
وكذلك نرى كيف راح الحجاج يسمى أبناءه الأربعة بأسماء محببة لبني
أمية، فأسمى ابنه الأول محمد، والثاني إبان، والثالث عبد الملك، والرابع الوليد...
كما نرى أن عبد الملك نفسه أيضا أسمى أحد أبنائه محمد، وأسمى ابنا آخر
الحجاج، كأنما كان يحاول من ذلك التقرب من عامله، والتلطف في بره وإرضائه...
وقد أرضى ذلك الحجاج وأقر عينه، حتى بلغ من أمره أن أهدى الحجاج
بن عبد الملك منزلا في دمشق...

نساء الحجاج

ويحدثنا المؤرخون أن الحجاج تزوج غير امرأة واحدة، طلق بعضهن
 واحتفظ بالبعض الآخر، ولكنه في الغالب لم يكن موفقا مع زوجاته، فقد كان
 كثير القلق مضطرب الخاطر، شديد التشاؤم أبدا، ومثل هذه الحالة لا تساعد
 على الراحة الزوجية المنشودة، فقد تزوج الحجاج أم كلثوم بنت عبد الله بن
 جعفر بن أبي طالب، ثم طلقها بأمر من عبد الملك، وكذلك طلق بنت عبد
 الله بن أسيد، ويذكر لنا صاحب العقد الفريد بين زوجاته (الفارسية) وقبل أن
 يعين الحجاج لولاية العراق تزوج ابنتي النعمان بن بشير، ثم طلقهما أيضا،
 ولكن أشهر زوجات الحجاج، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة،
 ثم طلقهما أيضا وفاقا لما يرويه الكامل في المبرد لمنام استشعر فيه شرا، ثم ظهر
 تفسير هذا المنام بموت ابنه وأخيه في وقت واحد...

في أيام الحجاج

وكان الناس في أيام الحجاج إذا تلاقوا في المجالس والمجامع والمساجد والأسواق،
 تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع، وانتهى به الإيمعان
 في الظلم إلى أن يأمر الناس بحلق لحاهم، ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في
 الحائط، فيموت جوعا وألما، وهو لا يستطيع سبيلا إلى الحراك...
 وكان قوي البنية، متجسما إلى السمنة، ولا يزال العرق متصبيا على جبينه
 وصدغيه من تحت قلنسوة قد أطاحها بعمامة خضراء، وكانت له مهابة تقصم

ظهر الوافد عليه، حتى لم ير من الناس من انبسط معه في الكلام أو تجرأ أن يرفع إليه بصره إلا الأقل منهم.

وكان شديد التهول في خطبه، وإذا صعد المنبر تلفح بمطرفه ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع، حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من في المسجد.

وكان يجد لذة في سفك الدماء وارتكاب مختلف ألوان العسف والقمع. وقال الذهبي "أنه كان شجاعا مهيبا جبارا عنيدا، ومخازيه كثيرة، إلا أنه كان عالما فصيحا مفوها مجودا للقرآن.

وكان الحجاج نهما مبذرا مسرفا، خصوصا في الحفلات والمآدب، وكان كثير الخير في هذه الناحية، حتى ذهب عبد الملك إلى انتقاده والتشديد عليه، وكان ينصب للناس ألف خوان في رمضان، وخمسمائة في غيره من الشهور.

شدة الحجاج وعبوسه

وذكر المدائني أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائيه منه بشاشة ولا سماحة في الخلق إلا في يوم دخلت عليه ليلى الأرخيلية فقال لها:

- بلغني أنك مررت بقبر توبة بن الحمير، وعدلت عنه فوالله ما وفيت له ولو كان هو مكانك وأنت مكانه ما عدل عنك.

قال: أصلح الله الأمير لي عذر.

قال: وما هو؟

قالت: سمعته وهو يقول:

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت علي وفوقي جندل وصفائح

سلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

وكان معي نسوة قد سمعن قوله فكرهت أن أكذبه، فاستحسن الحجاج

قولها وقضى حوائجها، وانبسط في محادثتها، فلم ير منه بشاشة وأريحة داخلية مثل ذلك اليوم.

ومرض الحجاج يوما - وذلك قبل مرضه الذي توفي فيه - فأرجف أهل الكوفة، فلما تماثل من علته صعد المنبر، وهو يتثنى على أعواده فقال: ”إن أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم، فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج، والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت، وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا إلا لأهونهم عليه إبليس“.

قتلى الحجاج وسجنه

ولقد أحصى من قتل الحجاج صبورا سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفا مجردة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب.

وذكر أنه ركب يوما يريد الجمعة فسمع ضجة فقال: ما هذا:
ف قيل له: المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء...
فالتفت إلى ناحيتهم وقال: اخسوا فيها ولا تكلمون..
فيقال أنه مات بعد تلك الركبة.

وما ذكرناه من عدد المسجونين في سجن الحجاج يكاد يجمع عليه أكثر المؤرخين، وإن كان بعضهم يذهب إلى زيادة العدد، ويقول آخرون أنه هلك في سجن الحجاج ما لا يقل عن خمسين ألفا من الرجال والنساء...
ولما اشتد الحال بأهل العراق أخذوا يهاجرون إلى الحجاز، وكان على الحجاز الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز، فكان هذا لا يعرض لهم بخير ولا شر فأغضب ذلك الحجاج، وكتب إلى الوليد يقول له: إن عامله على مكة لا يرى كبير أمر في الإحسان إلى المعارضين والثوار من الذين يهربون من وجهه، ولما كان الوليد مثله شدة ونقمة فقد عزل عمر بن عبد العزيز عن مكة وولى عليها خالد بن عبد الله القسري الذي كان فاسقا شديدا جبار..

والواقع أن الحكم على الحجاج ليس أمرا سهلا، فالمؤرخون الأولون قد
نفضوا أخباره الحسنة وأخباره السيئة معا، فلا يصح والحالة هذه أن يتهموا
بالمجاملة أو العداوة له، وإذا فأخباره التي بين أيدينا صادقة بكل معنى
الكلمة وبإجماع المؤرخين عليها...

الحكم على الحجاج

لقد كان يحسن الحجاج لنفسه وللناس من بعده، لو أنه عمد بعد
القضاء على الثورات الخارجية والداخلية في العراق إلى الأخذ بسياسة
الحلم، والعفو والتقرب من الناس، ولكنه كان رجلا جبارا لا يرى في
الحلم إلا ضعفا وتراجعا، فمضى في سياسة العسف مضيا قضى على أعماله
الحسنة، وأساء إلى إدارته القوية، وجعل الناس لا يذكرون هذه إلا بشيء
كثير من الاشمئزاز والنقد...

الحجاج بن يوسف الثقفي في أواخر أيامه

موته:

روى قتيبة بن مسلم قال: خطبنا الحجاج فذكر القبر فما زال يقول: "إنه بيت الوحدة، إنه بيت الغربية، وبيت كذا وكذا حتى بكى وأبكى".
وقيل أنه ذكر عند عمر بن عبد العزيز ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك فقال: الحجاج بالعراق والوليد بالشام، وقره بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس..
فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج، وقره بن شريك في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعزل عثمان وخالد واستجار الله لعمر بن عبد العزيز...
وكانت وفاة الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين وقيل كانت وفاته لخمس بقين من شهر رمضان، وله من العمر أربع وخمسون سنة، وقيل ثلاث وخمسون، وكانت ولايته على العراق عشرين سنة، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج، واستخلف على حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن مسلم فأقرهما الوليد بعد وفاته، ولم يغير أحدا من عمال الحجاج...
وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم يوما يقول: لقد نظرت في عمري فإذا أنا في الثالثة والخمسين، والمرء الذي يمشي خمسين سنة لا بد وأن يصل إلى المورد."
وقد كتب الحجاج كتابه هذا سنة ٩٤ للهجرة على الأرجح وقبل وفاته بقليل..
وقد اختلف المؤرخون في مرض الحجاج، وإذا نظرا إلى أنه كان شرها كثير الأكل، فلا يبعد أن يكون سبب موته، ما أصاب معتده من تعب وعناء، وما صارت إليه من عجز عن هضم الأطعمة الكثيرة التي كان من عادة الحجاج أن يأكلها...
وكان للحجاج طبيب كان في خدمة كسرى قبل الفتوح الإسلامية، وقد ذكر لنا ابن أسيبة في كتابه "الحكماء" شيئا عنه فقال أن اسمه (تيودو كوس) وأنه عاش ٩٠ سنة، وكان كثيرا ما ينصح الحجاج بأن لا يأكل إلا اللحم الذي ذبح حالا، وأن لا يأكل إلا الفاكهة المستوية، ولا يستعمل الأدوية إلا في حالة المريض..
ويقول بعض المؤرخين أن الحجاج أصيب بالسرطان في آخر أيامه، وأنه كان

يتعذب عذابا شديدا، وأنه ظل على عذابه هذا خمسة عشر يوما...
ولما فشا خبر موته بين الناس ظهر البشر على وجوه العراقيين وأخذوا يهنتون بعضهم بعضا، وسجد بعضهم للأرض شكرا لله على قبضه الحجاج إليه، كما ذهب آخرون يقسمون الإيمان المغلظة بأن الحجاج ذهب إلى النار، وأنه الآن حطبة في جهنم...
وقال ابن خلكان عن مرضه: "إن الله سلط عليه الزمهير فكانت الكوانين تجعل تحت مملوءة نارا، وتدني منه حتى تحرق جلده، وهو لا يحس بها...
ومات بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره، وأجري عليه الماء.
وروى ابن خلكان: أنه كان ينشد في مرض موته هذين البيتين:
يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا إيمانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عميةا ويحهم ما ظنهم بعظيم العفو غفار
وكان الحجاج يخبر عن نفسه: أن أكثر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أموال لا يقدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه.

كلمة الوليد فيه

وكان الوليد بن عبد الملك يقول: كان عبد الملك يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي، وأنا أقول: إنه جلدة وجهي كله.
ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موت الحجاج خر ساجدا وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الآخرة.

دفن الحجاج حيا

وهناك من يقول، أن الحجاج دفن حيا، وأنه أغمي عليه إغماء شديدا، فظن أهله أنه مات حقا، والواقع أن الأمر غير ذلك، ويؤكدون هذه الرواية بما سمعه الناس من صياح في قبره...
فقد روى أبو بكر بن عياش قال: سمع صياح الحجاج في قبره، فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه فأخبروه، فركب في أهل الشام فوقف على قبره فسمع صياحا. فقال: يرحمك الله يا أبا محمد، فما تدع القراءة حتى ميتا..

ويذكر غيرهم أنه كاتبه خشى عودة الحجاج إلى الحياة، فذهب إلى مغالطة الجماعة بأن الحجاج إنما يقرأ القرآن في موته كما كان يقرأه في حياته.

على دين أبي يوسف

ويوري صاحب العقد عن الحجاج هذه القصة الغريبة:

”لما جلس الحجاج لمحاكمة أسرى ثورة ابن الأشعث، قدم إليه رجل فقال له:

- على دين من أنت؟

فقال: على دين إبراهيم حنيفا، وما كان المشركين..

فقال: أضربوا عنقه.

ثم قدم آخر فقال له: على دين من أنت؟

على دين أبيك الشيخ يوسف...

فقال: أما والله لقد كان صواما قواما، خل عنه يا غلام.

فلما خلى عنه انصرف إليه الرجل وقال:

- يا حجاج سألت صاحبي: على دين من أنت؟ فقال: على دين إبراهيم حنيفا

وما كان من المشركين، فأمرت به فقتل، وسألتنى على دين من أنت؟ فقلت: على

دين أبيك الشيخ يوسف، فقتل: أما والله لقد كان صواما قواما، فأمرت بتخيلية سبيلي،

والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه.

فأمر به الحجاج فقتل.

فتأمل...

تكفير الأئمة للحجاج

وأئمة المسلمين يكادون يجمعون على تكفير الحجاج لبطشه وقتله الناس

بغير حق، فقد قال أحدهم للشعبي:

- يعزم الناس أن الحجاج مؤمن...

فقال: مؤمن بالجبث والطاغوت، كافر بالله...

واختلف بعضهم في الحجاج فذهبوا إلى مجاهد، وكان من انقى الناس

وأصلحهم في عصره فقالوا:

- أنا قد اختلفنا في الحجاج.

فقال: اجئتم تسألونني عن الشيخ الكافر؟

وروى محمد بن كثير عن الإمام الأوزاعي قال:

- سمعت القاسم بن حمد يقول: كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى

الإسلام عروة عروة...

خامس الأربعة

قبل للحجاج: كيف وجدت منزلك في العراق؟

قال: خير منزل لو أدركت بها أربعة لتقربت إلى اله بدمائهم...

قيل: ومن هم؟

قال: مقاتل بن مسلم ولي سجستان، فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما

قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم فقال:

- لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبيد الله بن ظبيان قام فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من

أعراض المسجد:

- أكثر الله فينا من أمثالك.

فقال: لقد سألتم الله شططا...

وسعيد بن زرارة كان ذات يوم جالسا على الطريق فمرت به امرأة فقالت:

- يا عبد الله أين الطريق إلى مكان كذا؟

فغضب وقال: المثلي يقال له يا عبد الله...

وأبو سماك الحنفي أضل ناقته فقال:

- لئن لم يردها على لا صليت أبدا.

فلما وجدها قال:

- علم أن يميني كانت برا.

قال ناقل الحديث: ونسى الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة، بل هو

أفسقهم وأطغاهم وأعظمهم إحادا وأكفرهم، في كتابه إلى عبد الملك بن مروان:

”إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم“.

رثاء الفرزدق للحجاج

ولما مات الحجاج رثاه الفرزدق الشاعر ليرضي بذلك الوليد بن عبد الملك
ولما مات الوليد بن عبد الملك، واستخلف سليمان بن عبد الملك أمر يزيد بن
المهلب عامله على العراق أن يقتل آل أبي عقيل - عائلة الحجاج - فقتلهم هجا
الفرزدق الحجاج وأهله، فقال له أحدهم:

- ما أدري بأي قوليك نأخذ، أمدحك الحجاج في حياته، أم هجوك له بعد موته.
فقال الشاعر: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه، فإذا تخلى عنه تخلينا عنه..